

الرد على من انتقد حاشية المهدي الوزاني على شرح ميارة للمرشد المعين لمحمد بن المبارك الهلالي (ت1372هـ)

تقديم وتحقيق

A Refutation of Those Who Criticized al-Mahdī al-Wazzānī's Marginal Notes on Mayyāra's Commentary on al-Murshid al-Mu'īn by Muḥammad ibn al-Mubārak al-Hilālī (d. 1372 AH)

Introduction and Critical Edition of Manuscripts

أ. عائشة أبو عطاء الله*

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال، الرباط، المغرب

تاريخ الإرسال: 2025/11/05 تاريخ القبول: 2026/03/27 تاريخ النشر: 2026/03/31

الملخص:

يتناول هذا البحث تحقيق ودراسة رسالة نادرة بعنوان «الرد على من انتقد حاشية المهدي الوزاني على شرح ميارة للمرشد المعين»، للعالم المغربي محمد بن المبارك الهلالي. وتتمثل الإشكالية في توضيح كيفية رد المؤلف على نقد منتقدي الحاشية، مع إبراز منهج المدرسة المغربية في النقد العلمي والوفاء للعلماء. اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، ملتزماً بقواعد التحقيق من قراءة النص وضبطه ومقارنته وتوثيقه، وتحليل محتواه في سياقه العلمي والتاريخي. وأظهرت الدراسة أن الرسالة نموذج راق للرد العلمي المذهب، يجمع بين الدقة المنهجية والبيان البليغ، ويعكس نضج المدرسة المغربية في الفقه والنقد، وسمو أدب العلماء في الخلاف والإنصاف، فضلاً عن تجسيدها روح الوفاء العلمي وحرص المؤلف على صيانة التراث العلمي المغربي.

الكلمات المفتاحية: الهلالي؛ الوزاني؛ الحاشية .

Abstract:

This study examines the critical edition and analysis of a rare treatise titled “Response to Those Who Criticized Al-Mahdi Al-Wazzani’s Gloss on Miara’s Explanation of Al-Murshid Al-Mu’in” by the Moroccan scholar Muhammad ibn al-Mubarak al-Hilali. The research problem focuses on how the author responded to the criticisms of the gloss, highlighting the Moroccan school’s approach to scholarly critique and loyalty to fellow scholars. The study adopts a descriptive-analytical method, adhering to the principles of textual editing, including reading, verifying, comparing, and documenting the text, as well as analyzing its content within its scientific and historical context. The study concludes that the treatise represents a refined model of polite scholarly response, combining methodological rigor with eloquent expression, reflecting the Moroccan school’s maturity in jurisprudence and criticism, and exemplifying the ethical and respectful conduct of scholars in scholarly disagreement, while preserving Morocco’s intellectual heritage.

Keywords: Al-Hilali; Al-Wazzani; Marginal Notes .

مقدمة:

الحمد لله الذي رفع منار العلم، وشرف حملته، وجعلهم ورثة الأنبياء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العلماء وإمام الحكماء، وعلى آله وصحبه أُولي الفضل والنهي، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن من تمام الوفاء لأعلام الأمة أن تدرس آثارهم، ويكشف النقاب عن مصنفاتهم، وتبرز جهودهم في ميادين العلم والفكر، إذ لا يستغنى بمعرفة المعاصرين عن جهود الأولين، ولا يدرك مسار العلم إلا بربط الماضي بالحاضر. ومن هنا تأتي أهمية إخراج التراث المغربي المخطوط إلى النور،

تحقيقاً ودراسة، لما يزر به من ذخائر علمية أصيلة، ومواقف فكرية وأدبية تنم عن عمق التجربة المغربية في ميادين الفقه واللغة والتصوف وسائر العلوم.

ومن جملة هذه المصنفات التي تستحق العناية رسالة نفيسة كتبها العالم محمد بن المبارك الهلالي في الرد على من انتقد حاشية شيخه الإمام المهدي الوزاني على شرح ميارة للمرشد المعين. وهي رسالة تظهر جانباً من الحياة العلمية بالمغرب في القرن الثالث عشر الهجري، وما كان بين العلماء من مراسلات وردود ومناقشات علمية جرت في إطار الأدب والمنهج، فكانت مجالاً لتلاقح الأفكار وتجويد النظر.

وقد جاءت هذه الرسالة شاهداً على روح الوفاء العلمي الذي جمع بين الشيخ وتلميذه، حيث انتصب المؤلف للدفاع عن أستاذه وعن منهجه، مع عرض علمي متين ونقد مؤدب، يراعي حرمة العلم وأدب الحوار. كما تمثل وثيقة تكشف عن منهجية التأليف والنقد عند المغاربة، وعن طبيعة الجدل العلمي الذي ساد بينهم في تلك المرحلة.

وإذ لم تحظ هذه الرسالة - فيما نعلم - بتحقيق أو دراسة من قبل، فقد اقتضى الواجب العلمي إفرادها ببحث أكاديمي يتضمن تحقيق نصها من النسخة الخطية الوحيدة المتاحة، ودراسة قيمتها العلمية ومكانتها في سياق الدرس المغربي الحديثي والفقه.

إشكالية البحث:

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية محورية يمكن صياغتها في السؤال الآتي:

ما القيمة العلمية والأدبية لرسالة محمد بن المبارك الهلالي في الرد على من انتقد حاشية المهدي الوزاني، وما الذي تكشف عنه من سمات المنهج العلمي والنقدي في المدرسة المغربية خلال القرن الثالث عشر الهجري؟

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

- 1 . تحقيق نص الرسالة تحقيقا علميا يوثق مادتها، ويقربها للباحثين بأسلوب علمي منضبط.
- 2 . التعريف بالمؤلف محمد بن المبارك الهلالي، وبيان صلته بشيخه المهدي الوزاني وسياق تأليفه لهذه الرسالة.
- 3 . إبراز البعد العلمي والأدبي للرسالة من خلال تحليل مضامينها اللغوية والفقهية والنقدية.
- 4 . إظهار ملامح النقد العلمي في التراث المغربي، والوقوف على أخلاق العلماء في الحوار والرد.
- 5 . الإسهام في خدمة التراث المغربي بإخراج نصٍ نادر يثري الدراسات الفقهية والأدبية.

1. ترجمة المؤلف

1-1: نسبه، ولادته، ووفاته:

هو الشيخ محمد بن المبارك بن علي بن عبد الملك بن محمد بن عبد الواحد بن الفضيل بن عبد الله بن أحمد بن قاسم بن الشيخ إبراهيم بن الهلالي، أحد كبار علماء مكناس في القرن الرابع عشر الهجري، وفقهه مالكي شهير من بيت علم وصلاح، عرف بسعة الاطلاع ورسوخ القدم في الفقه والأصول، واشتغاله بالإفتاء والتدريس زمنا طويلا.

ولد بمكناس ونشأ بها، وتلقى علومه في مدارسها وزواياها العلمية، حتى صار من كبار فقهاءها ومفتيها المعتمدين. عرف بين العلماء والأدباء بلقب الهلالي المكناسي، وظل يشار إليه بالبنان في مجال الفتوى على النهج التقليدي الموروث عن كبار المفتين، حتى عد من آخر من كتب الفتوى بأسلوبها الأصيل في المغرب.

توفي رحمه الله في حدود الخامسة وثلاثين دقيقة من صباح يوم الأربعاء 26 جمادى الأولى عام 1372 / 11 فبراير 1953، ودفن بالزاوية الصادقية بمكناس،¹ بعد عمر حافل بخدمة العلم والفتيا.

1-2: مكانته العلمية وشهادة العلماء فيه:

شهد له معاصروه وأهل العلم بعلو كعبه في الفقه والتحقيق.

قال عنه محمد حجي - وكان من تلاميذه - في معرض حديث عن شيوخه: "قرأت عليه بيت الصلاة من مدرسة العدول الخلاصة من باب النعت إلى قريب من باب جمع التكسير: بشر السيوطي المسمى بالبهجة، وبالجامع الكبير قرأت عليه اللامية الزقاقية بشرح ابن سودة إلا قليلا من آخرها، وطرفا مهما من أرجوزة الاستعارة لابن كيران بشرح البوري، وأرجوزة البيقونية في مصطلح الحديث بشرح ابن خضراء عليها، ومصلى الفيلاية بعضا من الشمائل المحمدية للترمذي بشرح جسوس عليها، وكانت دروسه يغلب عليها طريقة الإملاء والتحصيل".²

وهذه الشهادة تكشف عن ملامح شخصيته العلمية؛ فقد كان متفنا في العلوم، متقنا للتدريس، يجمع بين دقة العبارة وصرامة المنهج، ويعتمد طريقة الإملاء والتحصيل، وهي السمة المميزة لعلماء مكناس في القرن الرابع عشر الهجري.

كما وصفه ابن سودة بأنه: "العلامة المشارك المفتي الشهير" وقال أيضا: "فقيه مالكي من كبار المفتين في المغرب". وأثنى على كتابه (الفتاوى) مبينا أنه في عدة مجلدات.³

1-3: شيوخه وتلاميذه:

شيوخه:

نحل الهلالي من كبار علماء فاس ومكناس، مما أسهم في تكوينه تكويننا مركبا يجمع بين الدقة الفقهية والنزعة الحديثية، وهي خصائص بارزة في المدرسة المغربية خلال تلك الحقبة.

-محمد بن عبد السلام الطاهري (ت1339)⁴

-محمد المفضل بن الهادي بن أحمد بن المجذوب ابن عزوز المكناسي

(ت1319).⁵

-أبو عبد الله محمد بن الحسين العرائشي(ت1351)⁶

-أبو العباس أحمد بن الطالب ابن سودة المري الفاسي (ت1321هـ)⁷

-أبو عبد الله محمد القصري العبدري (ت1324)⁸

تلاميذه:

لقد تميز الشيخ محمد بن المبارك بتخريج طائفة من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد من أعلام الفكر والفقه بالمغرب، وبذلك أسهم في استمرار السند العلمي لمدرسة مكناس المالكية، ومن هؤلاء التلاميذ:

-المختار السنتيسي (ت1398)

-أحمد بن عبد السلام بن شقرون (ت1390)

- أحمد بن محمد غازي (ت1392هـ)

- محمد المنوني (ت1420هـ)

1-4: مؤلفاته:

من بين مؤلفاته:

-الفتاوى في عدة مجلدات

-نهاية التحقيق في بيان الأفضل من أيام التشريق⁹

-الرد على من انتقد حاشية المهدي الوزاني على شرح ميارة للمرشد المعين، وهي

الرسالة موضوع البحث.

-إذاقة عذاب الحريق لمن أوجب زكاة السيد لمال الرقيق، أو الانتصار لمذهب إمام

الأئمة سيدنا مالك بصفع قفا من عميت عليه المسالك، كما هو مسجل ضمن

مخطوطات مكتبة آل سعود بالدار البيضاء ضمن جموع تحت رقم 564

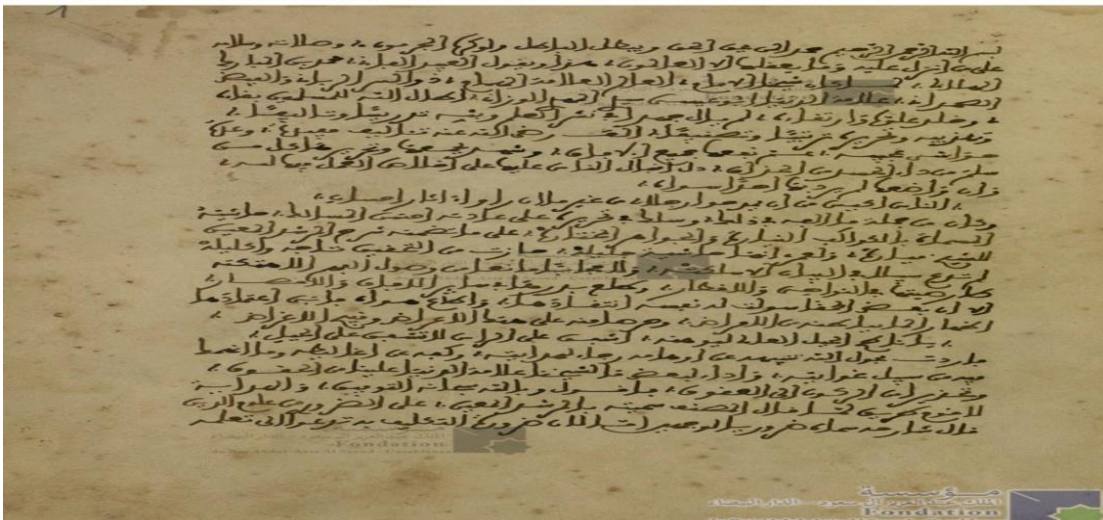
2- وصف المخطوط وصورة:

اعتمدت في تحقيقي على نسخة من المخطوط محفوظة بمكتبة آل سعود بالدار

البيضاء، تحت رقم 564/4، وتتكون من 8 لوحات، بخط مغربي واضح، تامة، بخط

المؤلف. مسطرتها: 23 سطرا، بدون تاريخ النسخ.

اللوحة الأولى:



اللوحة الأخيرة

أظهر المؤلف غاية التوقير لشيخه الإمام المهدي الوزاني، فوصفه بأوصاف العلم والولاية والتحقيق، لكنه لم يكتف بالممدح المجرد، بل جعل من ذلك مدخلاً لتبيين مشروعية الدفاع عنه، إذ اعتبر أن إقبال الناس على كتبه، وانتشارها في الآفاق، قرينة على إخلاصه وصحة مقصده.

وهذا المنهج من الاستدلال بالأثر العلمي على صفاء النية هو من طرائق العلماء المحققين في الدفاع عن الأئمة، وهو يدل على أن المؤلف يوازن بين الجانب الأخلاقي والجانب البرهاني في الدفاع.

ثالثاً: تحديد موضوع النقد والرد عليه بمنهج تحليلي

لم يكتف المؤلف بالإنكار العام على المنتقد، بل بين موضوع المسألة العلمية محل الخلاف، وهي تفسير وجه تسمية "المُرشد المعين" بالضروري، وشرح وجهي المعنى اللذين أوردهما ميارة.

ثم عرض رأي الشيخ الوزاني في التفريق بين الوجهين، ورد على من أنكر هذا التفريق، بأسلوب تحليلي لغوي واصطلاحي دقيق، مستندا إلى الشواهد اللغوية والعقلية، وإلى أقوال الأئمة في الاصطلاح والمنطق، مثل استشهاده بالبيت المشهور من "السلم" في تقسيم العلم إلى نظري وضروري.

وهذا يبرز أن منهجه في الرد يقوم على التحرير الاصطلاحي والتحليل الدلالي قبل الحكم، وهو من أدق مناهج النقد العلمي.

رابعاً: الجمع بين قوة الحجة وبلاغة الأسلوب

تميز منهجه بأسلوب بياني قوي متين، مزج فيه بين الاحتجاج العقلي والبيان الأدبي، فجاءت عباراته مؤثرة، محمّولة على نفس غيور على العلم، مستخدماً الشعر والأمثال في مواضعها لتقوية المعنى وتثبيت الموقف، مثل قوله:

"يا ناطح الجبل العالي ليوهنه * أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل."

وهذا يدل على أن المؤلف يوظف الأدب لخدمة الحجة، لا للزخرفة اللفظية، وأنه يرى في قوة البيان وسيلة لحماية الحق العلمي من الاضطراب.

خامسا: نقد المنتقد بمنهج تقوي لا هجومي

مع شدة لهجته، إلا أن المؤلف يؤسس نقده على تقويم الفهم قبل تقويم الشخص، فهو يعزو الانحراف إلى "سقم الفهم" لا إلى سوء القصد في الأصل، ويقول:

"فكم من عائب قولاً صحيحاً، وآفته من الفهم السقيم."

كما يظهر منهجه الحرص على نصح المخطئ وتنبيهه إلى مواضع الوهم، لا مجرد التشهير به، مبرزاً أن وظيفة العالم إرشاد المخالف إلى الصواب إن كان له استعداد لقبوله.

سادسا: بناء الرد على أصول العلم وآدابه

استشهد المؤلف بأقوال الأئمة مثل سحنون والخليل وغيرهما، ليؤصل لموقفه من جهة الآداب العلمية، لا من جهة العصبية الشخصية.

وبين أن الانتقاد بغير علم من أعظم الآفات، وأن من لم يتلق العلم على أهله لا يحق له أن ينطق فيه، مستدلاً بقول سحنون في أدب الفتيا.

فمنهجه في الرد هو رد الفعل إلى أصله العلمي التربوي، وتنبيه القراء إلى خطر التجرؤ على العلماء من غير تأصيل أو فهم.

سابعاً: الجمع بين العلم والتربية

يلاحظ في أسلوب المؤلف أنه لا يقف عند حدود الجدل العلمي، بل ينتقل إلى تهذيب النفوس، وتذكيرها بعواقب الكبر والغرور، مستدلاً بالأحاديث النبوية والحكم الأخلاقية، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبي زور»، ثم يعقب بقوله:

"كل من يدعي بما ليس فيه كذبت شواهد الامتحان."

فهو في رده لا يناظر فقط، بل يربي المخالف ويؤدبه بآداب العلم، جامعا بين البيان العقلي والتهذيب الخلقي.

ثامنا: المنهج الدفاعي المقاصدي

إن الغاية التي تحكم منهجه ليست مجرد الانتصار لشيخه، بل حماية مكانة العلماء وصون هيبة العلم، ولذلك أكثر من التحذير من "هتك الأعراض" و"قبيح الأغراض"، واعتبر أن من انتقص العلماء إنما "ناطح الجبل العالي"، وأن في ذلك فسادا في المقصد العلمي ومروقا عن آداب التحقيق.

فمنهجه إذن ذو بعد مقاصديٍّ إصلاحِيٍّ، يجعل من الرد وسيلة لصيانة بيضة العلم، لا لإثارة الخلاف.

تاسعا: أسلوب الاستشهاد والنقل

يكثر المؤلف من النقول الموثوقة عن الأئمة، ويصرح بألفاظهم، وينقل بالنص من كتب اللغة والفقه والمنطق، وهذا يكشف عن تحقيق واسع وإطلاع متين، ويدل على منهج نقدي يقوم على الرجوع إلى الأصول لا إلى الأذهان، كما قال هو نفسه:

"حسبنا فهم كلامهم وسؤال أهله عنه إذا لم نفهمه."

عاشرا: ختام علمي تربوي

اختتم المؤلف رسالته بكلام يجمع بين الزجر والموعظة، واستشهد بأبيات وحكم تظهر أن الخلاف في العلم لا يبرر سوء الأدب، وأن من لا يفهم فلا يحق له الاعتراض، ثم ختم بقوله:

"وهنا كلام فيما ذكر كفاية والسلام."

وهي خاتمة تدل على تواضع العالم، وإيثاره الإيجاز بعد البيان، وإعراضه عن التطويل بعد إقامة الحجة.

4-تحقيق الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وصلاته وسلامه على من أنزل عليه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ﴾¹⁰.

هذا ويقول العبد الفاني محمد بن مبارك الهلالي:

لما كان شيخنا الامام، العالم العلامة، الهمام، ذو السر الرباني، والفيض الصمداني، علامة الدنيا، أبو عيسى، سيدي المهدي الوزاني، أطال الله للمسلمين بقاءه، وخلد عليهم ارتقاءه، لم يأل جهدا في نشر العلم وبثه تدريسا وتأليفا، وتهذيبه وتحريره ترتيبا وتصنيفا، ألف -رضي الله عنه- تأليف مفيدة، وعدة حواشي عجيبة عم نفعها جميع الافاق، وشهد بجمعها وتحريرها كل من سلم من داء الحسد من الحذاق، دل إقبال الناس عليها على إخلاص العمل فيها لله، وأن واضعها لم يرد بها أحدا سواه، الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا من غير ما إن رأوا آثار إحصان.

وكان من جملة ما ألفه في ذلك، وسلك في تحريره على عادته أحسن المسالك، حاشيته المسماه ب"الكواكب النيرة والجواهر المختارة على ما تضمنه شرح المرشد المعين" للشيخ ميارة، ولعمري إنها حاشية جلييلة حازت من التحقيق تاجه وإكليله، لم تدع سيلا في البيان إلا ملكته، ولا حجابا مانعا من وصول الفهم إلا هتكته، طار صيتها في النواحي والأقطار، وطلع بدرها في سائر الآفاق والأمصار، إلا أن بعض الحمقى سولت له نفسه انتقادها، وأطاع هواه فأبى اعتمادها إظهارا لما بباطنه من الأمراض، وحرصا منه على هتك الأعراض وقبيح الأغراض.

يا نَاطِحَ الْجَبَلِ الْعَالِي لِيُوهِنَهُ *** أَشْفَقَ عَلَى الرَّأْسِ لَا تُشْفِقْ عَلَى الْجَبَلِ¹¹

فأردت بحول الله تنبيهه عن أوهامه رجاء لهدايته، وكفه عن أغاليطه، وما أتهمك فيه من سبيل غوايته، وأداء لبعض ما لشيخنا علامة الدنيا علينا من الحقوق، وتحذيرا من الركون إلى العقوق، فأقول وبالله سبحانه التوفيق والهداية لأقوم طريق:

لما قال المصنف: سميت ب"المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" قال شارحه: "سماه ضروريا لوجهين: إما لأن ضرورة التكليف به تدعو إلى تعلمه وتعليمه، فيضطر إليه جميع الناس"¹² انتهى.

وبيانه: أن الضروري منسوب إلى الضرورة، وتخفيف ياء النسب لغة، والضرورة معناها الحاجة، ومنه قولهم: دعت الضرورة إلى كذا، أي ألبأت الحاجة إليه، قال في القاموس ما نصه: "والضرورة الحاجة"¹³ انتهى بلفظه، أي أن نظمه مرشد معين على المحتاج والمضطر إليه من علوم الدين كالعقائد.

هذا هو معنى التقرير الأول في وجه تسميته ضروريا وهو واضح لا غبار عليه.

ثم قال في الوجه الثاني: "وإما لكونه لما وجب على الأعيان ولا مندوحة عن تعلمه؛ استوجب أن يكون محضرا عند كل أحد يدركه بديهية كالحكم الضروري الذي يدرك بلا تأمل"¹⁴ انتهى

وبيانه: أن المراد بالضروري ما يدرك بدون تأمل مقابل النظر المنقسم إليهما العلم، كما قال في السُّلَم: وَالنَّظَرُ مَا احتَاجَ لِلتَّأَمُّلِ *** وَعَكْسُهُ هُوَ الضَّرُورِيُّ الْجَلِيُّ¹⁵

أي أن نظمه لما كان مشتملا على ما هو متعين على كل مكلف تأكد الاهتمام بحفظه وتحريره وتفهمه وتفهمه حتى يدرك معناه على حقيقته، ولا يحتاج في فهمه وإدراكه إلى تأمل، فنظمه مرشد معين على المعلوم ضرورة من علوم الدين أي بدون تأمل، وهذا الوجه الثاني غير الأول، وليس راجعا إليه قطعا. خلافا لمن أرعد وأبرق وأطال في ذلك بما لا فائدة فيه على عادته، وكم لها من نظير:

فَكَمُ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَاحِحًا *** وَأَفْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ¹⁶

ولتغاير الوجهين المذكورين انتقد شيخنا علامة الدنيا حفظه الله، وكبت عدوه وشأنه زيادة الشيخ ميارة في صغيره قوله: "والاحتمالان راجعان لمعنى واحد" انتهى

وانتقاده عليه الصواب ليس فيه عند من سلمت عقولهم من أكل المفسدات ارتياب، وإنما حسبنا فهم كلامهم وسؤال أهله عنه إذا لم نفهمه، والمنتقد منا عليهم ينشده لسان الحال: "عليك بطودك لا تعده".

قال بعض المحققين: "لا يرتاب مرتاب أن الطعن على الأئمة الصادر من أمثالنا إنما هو من الحمق الواضح، لاسيما والمصيبة جاءتنا من عدم فهم كلامهم وتدبره وإلا فهم القدرة، ولولا تحقيقاتهم رضي الله عنهم وكلامهم المقرر الذي يلج على القلوب ويفتح البصائر لبقى الناس بعدهم في الحيرة والانقطاع، رزقنا الله فهم كلامهم والتمسك بما بلغوه لنا لأهم حملة الشريعة وعنهم أخذت، فكيف يتصور الطعن عليهم ممن لم يفهم مقاصدهم، فتعين زجر من طعن عليهم وردعه إن كان مصرا على ذلك، وإن كانت فلتة فيرشد للصواب، وينبه على مواضع الخطأ الصادر منه ليتزكاه، ولا يعود لمثله" انتهى. نقله شيخنا المذكور.

وقال سحنون: "من اشترى كتب العلم وورثها ثم أفتى بها ولم يقرأها على الفقهاء أدب أدبا شديدا، فكيف به إذا صار ينتقد عليهم، وهو لا يساوي تراب نعالهم مع أن النسبة بيننا وبينهم كالنسبة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾، فإلى الله المشتكى ولكن:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ¹⁷

فحال هذا المنتقد وشبهه، كحال من بال إلى جانب البحر، وقال هذا بحر آخر.

يُظُنُّ الْغَمْرُ أَنَّ الْكُتُبَ تَجْدِي أَخَا ذَهْنٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهْلُ بِأَنَّ فِيهَا غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
إِذَا رَمَتْ الْعُلُومَ بَغِيرَ شَيْخٍ ضَلَلَتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبَسُ الْأُمُورَ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرُ أَضَلَّ مِنْ تُوْمَا الْحَكِيمِ¹⁸

والعجب كل العجب ممن يرضى عن نفسه، ولا يستحي من معرة أبناء جنسه، وقد قال في الحكم: "فأيُّ علم لعالم يرضى عن نفسه وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه"¹⁹.

وفي الحديث: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَلَابِسُ ثَوْبِي زُورٌ»²⁰

كُلُّ مَنْ يَدَّعِي بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَذَّبَتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ²¹

وأعجب من حاله حال من يقبل هذيانه من ضعفة العقول الذين لا يميزون بين المعقول والمنقول، فما هم إلا حمر مستنفرة، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأب الله إلا أن يتم نوره. ونظير توغلهم في هذه الغباوة قول ابن مرزوق: "شاهدت بمصر بعض جهلة العوام الأغبياء ينتفون شعر حمار شيخنا الفقيه العلامة شمس الدين ابن البهارس أيام تجرد للوعظ والتذكير، وتركه الإفادة والتعليم"²² انتهى.

ويحكى أن أصحاب الحلاج بالغوا في التبرك به حتى كانوا يتمسحون ببوله، ويتبخرون بعذرتة حتى ادعوا فيه الألوهية، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا²³ انتهى.

ولولا أن من إضاعة العلم أن يحدث به غير أهله لأطلقنا هنا بعدة كراريس، لكن نمسك عنان القلم لذلك امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: «آفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ وَإِضَاعَتُهُ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ»²⁴.

قال علماؤنا رضي الله عنهم: عدم الاهلية أن يكون الانسان بليدا، جافي الطبع، نائي الفكر عن المدارك بعيدا عن الفهم والحفظ، فتعليمه عبث وتكلف، كمن يبذر في السباح، فحق العالم أن يتجنب مثل هذا ما أمكنه، وهو محنة لمن ابتلي به، وليصرفه صرفا جميلا إلى ما يليق به، ومن البلية خطاب من لا يفهم.

وقد روي عن الخليل قال: "كان إنسان يتعلم علم العروض، فلا يحصل منه على شيء، فلما طال به الحال أتت عليه سنة أو نحوها، وهو على حاله من الجمود، ألقيت إليه قول من قال:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقلت له قطعهُ ففهم المراد وانصرف ولم يعد إلي، فتعجبت من جهة إشارة البيت مع جموده" 25 انتهى

ويكفي الشفق على نفسه من هؤلاء الحمر المستنفرة أن لو راجع تقييدنا المسمى ب "الزجر الكافي في حق غليظ الطبع الجافي" ففيه ما يشفي ويكفي وينشد:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تَنَادِي 26

وهنا كلام فيما ذكر كفاية والسلام.

قاله وقيده عبد ربه محمد بن مبارك الهلالي، إذ قد ألفه حلاوة تقول، وكان له وتولاه.

أهم النتائج

أفضت الدراسة والتحقيق إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

1- أن هذه الرسالة تمثل نموذجا متقدما للرد العلمي المذهب في التراث المغربي، حيث جمع مؤلفها بين نصره الشيخ، وصيانة العلم، والتحاكم إلى الأدلة لا إلى الأشخاص.

2- أن المؤلف امتاز بمنهج علمي نقدي متزن، قائم على تحليل النصوص، وتفنيد

الاعتراضات بلغة منضبطة خالية من التعصب أو التهمج.

3- أنها تظهر مدى العناية التي أولاها علماء المغرب للمرشد المعين وشروحه، مما يدل على مركزية هذا المتن في تكوينهم الفقهي والتربوي.

4- أن الرسالة تسهم في إثراء المكتبة المغربية والعربية بنص تراثي جديد، يعيد الاعتبار إلى

شخصية علمية مغربية قل أن نبه إليها في الدراسات الحديثة، وهي شخصية محمد بن المبارك الهلالي.

وبذلك خُصَّ البحث إلى أن هذه الرسالة ليست مجرد رد علمي على اعتراض جزئي، بل هي وثيقة فكرية تعبر عن منهج متكامل في النظر والنقد والوفاء، يشي بخصوصية المدرسة المغربية في التعامل مع الخلاف العلمي، ويبرز رقي خطابها وعمقها الحضاري.

لائحة المصادر والمراجع:

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي صحيح البخاري ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (دار ابن كثير، دار اليمامة) - دمشق، الطبعة: الخامسة، 1414 هـ - 1993 م
- محمد بن عمر نووي الجاوي نصائح العباد في بيان ألفاظ منبهات على الاستعداد ليوم المعاد لشهاب الدين أحمد ابن حجر العسقلاني، ، دار الكتب العلمية، طبعة 2015م.
- محمد عبد السلام إبراهيم، حاشية الباجوري على متن السلم في المنطق للأخضري، ، دار الكتب العلمية، طبعة 2021م.
- ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، تحاف أعلام الناس ، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، **تحقيق:** أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - السعودية، **الطبعة:** الأولى، 1414 هـ - 1994 م.
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، مسند الدارمي، تحقيق: مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، الطبعة: الأولى، 1436 هـ - 2015 م.
- أحمد بن يحيى الوئشيس، المعيار المعرب ، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 2011.
- الحسن بن مسعود اليوسي، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم ، تحقيق: حميد حماني، مطبعة شالة، الرباط، طبعة 1998م
- بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد، حلية طالب العلم ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1416 هـ .
- تاج الدين ابن عطاء الله السكندري، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ضبطه: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1998م،

- ديوان أبي تمام، مطبعة جاورجيوس، بيروت، طبعة 1887هـ.
- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري البغدادي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، طبعة 2016.
- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور.
- عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
- علي محفوظ، الإبداع في مضار الابتداع، دار الكتب العلمية.
- مجد الدين أبو طاهر الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م.
- محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1999م.
- محمد بن أحمد ميارة المالكي الدر الثمين والمورد المعين (شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين)، تحقيق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث القاهرة، 1429 هـ - 2008 م.

المقالات:

المجلة الجزائرية للمخطوطات لعارف يحيى المجلد 20 العدد 2 نونبر 2024

الهوامش:

- ¹ - محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1999م (1413/4)
- ² - محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1999م (1413/4)
- ³ - عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 (535/2)
- ⁴ - ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس، مصدر سابق (348/4)

- 5 - ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس، مصدر سابق (349/4)
- 6 - محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي (1410/4)
- 7 - عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، اتحاف المطالع، مصدر سابق (358/1)
- 8 - ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس، مصدر سابق (331/4)
- 9 - تم تحقيقها في مقال نشر بالمجلة الجزائرية للمخطوطات لعارف يحيى المجلد 20 العدد 2 نونبر 2024
- 10 - سورة العنكبوت، جزء من الآية: 43
- 11 - من البحر البسيط، وهو قول الحسين بن حميد. أبو عمر يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م، (1113/2).
- 12 - محمد بن أحمد ميارة المالكي، الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، تحقيق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث القاهرة، 1429 هـ - 2008 م، ص: 600.
- 13 - مجد الدين أبو طاهر الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م، ص: 428
- 14 - محمد بن أحمد ميارة المالكي، الدر الثمين والمورد المعين (شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين)، مصدر سابق، ص: 600.
- 15 - محمد عبد السلام إبراهيم، حاشية الباجوري على متن السلم في المنطق للأخضري، دار الكتب العلمية، طبعة 2021م، ص: 115
- 16 - من البحر الوافر، من ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري البغدادي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، طبعة 2016، ج 1، ص: 469.
- 17 - أبو تمام من ديوانه، مطبعة جاورجيوس، بيروت، طبعة 1887 هـ، ص: 422
- 18 - بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد، حلية طالب العلم، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1416 هـ . ص: 161
- 19 - تاج الدين ابن عطاء الله السكندري، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ضبطه: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1998م، ص: 548
- 20 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب: المتشبع بما لم ينل وما ينهي من افتخار الضرة. ح (4921)
- 21 - محمد بن عمر نووي الجاوي نصائح العباد في بيان ألفاظ منبهات على الاستعداد ليوم المعاد لشهاب الدين أحمد ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، طبعة 2015م، ص: 54
- 22 - أحمد بن يحيى الوئشيري، المعيار المعرب، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 2011، ج 8 ص: 347
- 23 - علي محفوظ، الإبداع في مضار الابتداء، دار الكتب العلمية، طبعة 1978م، ص: 195
- 24 - أخرجه الدارمي في مسنده أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، تحقيق: مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني، الطبعة: الأولى، 1436 هـ - 2015 م (227/1)

²⁵ - الحسن بن مسعود اليوسي، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم ، تحقيق: حميد حماني، مطبعة شالة،

الرباط، طبعة 1998م: 352

²⁶ - البيت لبشار بن برد وهو من البحر الوافر، ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، ص: 434

